هـذا الكـتـاب

يتألف هذا الكتاب من عدد من المحاضرات التى ألقيت على طلاب الدراسات العليا بمعهد البحوث والدراسات العربية عن مناهج النقد المعاصر، والمحاضرات بطبيعتها تميل إلى الشرح والتبسيط والتقاط ما هو جوهرى فى الفكرة على ما يتراءى للمتحدث وإفهامه للمستمعين بأيسر السبل، دون تدقيق فى المصادر أو تأنّق فى العرض، تجرى على اللسان بتدفق وتلقائية طبقًا لمقتضيات التواصل وما يبدو فى عيو ن المخاطبين من فضول أو شغف أو ملل، وطبقًا لما يرد فى خاطر المتحدث فى تلك اللحظة على وجه التحديد، ومن ثم فإن العفوية تمثل سمتها الأساسية. وقد أردت أن أحتفظ لهذه المحاضرات بطابعها الشفاهى فلم أتدخل لإعادة صياغتها وتنظيمها بالطريقة الأكاديمية فى توثيق النقول وتدقيق المرجعيات، حتى أستأنف بها نوعًا من الخطاب النقدى الذى طالما استمتع به القراء العرب فيما كان يمليه طه حسين ومحمد مندور على وجه الخصوص، إذ إننى أدركت أن سر سيولة كلامهما يعتمد على طريقة إنتاجه عبر الإملاء الشفوى، ولا أزعم أننى أطمح إلى مجاراتهما فى سحر الكلام وإيقاعاته الصوتية والدلالية، ولكن حسبى أن تتسع مساحة قراء هذه الصفحات لتتجاوز دائرة المتخصصين وتمد يدها لعامة المشتغلين بالأدب والثقافة خاصة من الشباب، لتعريفهم بمظاهر هذا الانفجار النقدى العظيم الذى جعل النصف الثانى من القرن العشرين عصر

النقد الذهبى بحق، وقد اقتصرت فى استخدام المصطلحات التى طالما كانت تمثل العائق الأساسى فى التلقى للنقد الحداثى على قدر الضرورة، مؤثرًا شرح الفكرة بأبسط وأقرب العبارات، كما اقتصرت فى الإشارة إلى المراجع على ما يتوفر للقارئ العربى عقب كل فصل أو محاضرة، واستهدفت فى الجملة إلى وضع خارطة كلية للمشهد النقدى فى الثقافة العربية والعالمية، متفاديًا التفصيلات الجزئية والإشكالات المعرفية الدقيقة، خاصة تفصيل ما يتصل بطبيعة موقف النقد العربى من هذه المناهج وقصة تلقيه لها وإضافته إليها لأن ذلك يدخل فى سياق التأريخ للحركة النقدية العربية مما أشير إليه بإيجاز فى نهاية هذه الصفحات. ومن الطبيعى أن تكون الصورة المقدمة هنا عامة بقدر الإمكان ومحكومة بمنظور محدد يتم فيه التركيز على الجوانب الفكرية والتقنية ويكتفى بالإشارة الخاطفة لمجمل القضايا المثارة .

وفى تقديرى أن وظيفة النقد المعاصر فى مجتمعاتنا العربية تمضى فى نفس الاتجاه الذى بدأت به عند الرواد، باعتباره عملاً تثقيفيًا تنويريًا يهدف إلى إشاعة الروح النقدى فى مختلف مستويات الفكر والممارسة الاجتماعية؛ لأن دينامية التطور ترتكز على تشغيل الموقف النقدى بأقصى طاقته فى مجالات السياسة والاجتماع والثقافة، وتضيف إليه توجهًا جديدا هو الذى يميز نقد الآونة الأخيرة وهو تحديد مفهوم وطبيعة توجهه العلمى بشكل يخالف ما كان عليه حال العلم الإنسانى من قبل، فقد خرج من دائرة الفروض الأيديولوجية الضخمة فى نظرياته وإجراءاته ليلتمس مدخلاً صحيحًا

للعملية المتنامية المتراكمة، متسقًا فى ذلك مع منظومة العلوم الإنسانية فى حركتها المتواصلة لتعديل استراتيجيتها كى تتوافق مع التطور المحدث، وكلما أصبح النقد علميًا وتخلص بقدر الإمكان من الفروض الأيديولوجية واتجه إلى المستقبل كان أكثر علمية وتواصلاً مع الفكر الإنسانى، وأكثر عونًا لنا فى الآن ذاته على اكتشاف خصوصيتنا فى هذا العصر واختلافها عما كانت عليه فى العصور الماضية. وحسب هذه الصفحات أن تكون دليلاً للقارئ كى يمضى فى تعميق معارفه وضبط توجهه نحو هذا الأفق المستقبلى دون شعور بالغربة أو التهميش، لأن حركة الحياة من حولنا تمضى على هذا النحو بالرغم من كل التوترات والتقلصات، وثقافتنا العربية جديرة بأن تحتل موقعها فى إنتاج المعرفة المعاصرة بالدخول فى قلبها والإضافة إليها .

وقد رأيت أن أضيف إلى هذه المحاضرات مقالاً مركزًا على أبرز إنجازات النقد العربى فى القرن العشرين فى ضوء هذه المرتكزات الأولى ، حتى يكتمل المشهد المنهجى والواقعى معًا فى خطاطة وجيزة.

والله الموفق،،

دكتور صلاح فضل

obeikandl.com

تمهيد

مفهوم المنهج

نلاحظ فى البداية أن جميع التعريفات التى تحاول الإلمام بهذا المفهوم تقصر عن الإحاطة بجوانبه، لأن الوجه اللغوى فى التعريف لا يفى بتغطية الشروط الاصطلاحية. فتعريف المنهج لغويًا، هو الطريق والسبيل والوسيلة التى يتدرج بها للوصول إلى هدف معين.

أما تعريفه اصطلاحًا فقد ارتبط بأحد تيارين:

الأول: ارتباطه بالمنطق، وهذا الارتباط جعله يدل على الوسائل والإجراءات العقلية طبقًا للحدود المنطقية التى تؤدى إلى نتائج معينة. لذلك فإن كلمة منهج انطلقت من اليونانية واستمرت فى الثقافة الإسلامية، لتصل إلى عصر النهضة، وهى ما تزال محتفظة بالتصورات الصورية طبقًا للمنطق الأرسطى بحدوده وطرق استنباطه.

فالمنهج فى هذه المرحلة يطلق عليه المنهج العقلى، لأنه يلتزم بحدود الجهاز العقلى ليستخرج النتائج منها، وهو فى ذلك حريص على عدم التناقض.

الثانى: ارتباطه فى عصر النهضة بحركة التيار العلمى.

وقد أخذ المنهج العقلانى المنطقى بعد عصر النهضة يسلك نهجًا مغايرًا يتسم بنوع من الخصوصية خاصة مع «ديكارت» فى كتابه «مقال فى المنهج». لذلك اقترن المنهج فى هذه الفترة بالتيار العلمى، وهذا التيار لا يحتكم إلى العقل فحسب وإنما كذلك إلى الواقع ومعطياته وقوانينه. فالمنهج - إذن -

اقترن بنمو الفكر العلمى التجريبى، ووقع التزاوج بين طرائق العلماء والمنهجيين، وولد ما يسمى بالمنهج التجريبى. ولكن ليس معنى هذا أنه تم التخلى عن المفهوم الأول ليحل محله الثانى بصفة مطلقة، وإنما صار ثمة تعايش بين المفهومين، فقد يطلق المنهج ليراد به المنظومة المرتبة التى يمكن عن طريقها الوصول إلى نتائج منطقية، وقد يطلق المنهج ليراد به المنهج التجريبى.

أما فى العصر الحديث فقد تعددت الشروط والمواصفات التى تحدد طبيعة المنهج العلمى، لكن موضوع دراستنا لا يتطلب الإفاضة فى هذا ، ولذلك سوف يقتصر الحديث هنا عن المنهج النقدى الذى يهم درسنا.

والمنهج النقدى له مفهومان، أحدهما عام والآخر خاص.

أما العام ، فيرتبط بطبيعة الفكر النقدى ذاته فى العلوم الإنسانية بأكملها، وهذه الطبيعة الفكرية النقدية أسسها «ديكارت» على أساس أنها لا تقبل أى مسلمات قبل عرضها على العقل، ومبدؤه فى ذلك الشك للوصول إلى اليقين، فرفض المسلمات إجرائيًا وعدم تقبل إلا ما تصح البرهنة عليه كليًا، هو جوهر الفكر النقدى، وهو جوهر فلسفى يرتبط بمنظومة العلوم كلها، ولهذا الفكر النقدى سمة أساسية، وهى أنه لا يقبل القضايا على علاتها انطلاقًا من شيوعها وانتشارها، بل إنه يختبرها ويدلل عليها بالوسائل التى تؤدى إلى التأكد من سلامتها وصحتها، وذلك قبل أن يتخذ هذه القضايا أساسًا لبناء النتائج التى يريد الوصول إليها .

أما الخاص، فهو الذى يتعلق بالدراسة الأدبية ، وبطرق معالجة القضايا الأدبية والنظر فى مظاهر الإبداع الأدبى بأشكاله وتحليلها، وهو بهذا المفهوم يتحرك طبقًا لمنظومة خاصة به تتألف من مستويات مختلفة لعل من أهمها:

مستوى النظرية الأدبية :

فكل منهج لابد له من نظرية فى الأدب، ونظرية الأدب هذه تطرح أسئلة جوهرية ، وتحاول إقامة بناء متكامل للإجابة عن هذه التساؤلات. وأهم

هذه الأسئلة هو، ما الأدب؟ أى التساؤل عن طبيعة الأعمال الأدبية وماهيتها وعناصرها وأجناسها، وقوانينها، والسؤال الثانى يرتبط بعلاقة الأدب بالمجتمع والحياة والمبدع والمتلقى ، أى علاقة المدونة الأدبية بما يرتبط بها وما يخرج عنها سواء كانت العلاقة محاكاة أو تخيلاً أو انعكاسًا أو علاقة انطماس أو ارتباط عفوى كما تتصور نظريات الحداثة.

النظرية الأدبية - إذن - لابد أن تجيب أو على الأقل تحاول الإجابة عن هذين السؤالين، عن طبيعة الأدب، وعلاقاته ثم تجيب عن سؤال ثالث يتصل بوظائفه الجمالية والإنسانية وكل نظرية تسفر عن مجموعة من السبل التى ينبغى أن نسلكها للبرهنة على تحقيقها بمقادير مختلفة، هذه السبل والإجراءات التى يتخذها أصحاب أية نظرية لتحليل الأعمال الأدبية وللبرهنة على توافق القوانين الداخلية والخارجية لها، هى التى يتمثل فيها المنهج المصاحب للنظرية الأدبية، وكل نظرية تعدل من المناهج السابقة عليها لتتوافق مع مبادئها وأدواتها ومسلماتها.

لذلك فالمفهوم المعرفى المؤسس للأدب هو النظرية ، والمنهج النقدى هو الذى يختبر توافق هذه النظرية مع مبادئها ويمارس فاعليته، ويتم تداوله عبر جهاز اصطلاحى يحمل قنوات تصوراته ويضمن كيفية انطباقها - قربًا أو بعدًا - مع الواقع الإبداعى . والمنظومة الاصطلاحية تمثل الطرف الثالث فى العملية المنهجية . فعندنا - إذن - النظرية والمنهج والمنظومة الاصطلاحية، والأخيرة تمثل الأدوات التى يطبق بها المنهج وهى خاضعة للتغير من منهج إلى آخر، وتلعب المصطلحات الخاصة بكل مجال دورًا أساسيًا فى التمييز بين اختصاصات المناهج.

هذه الأطراف الثلاثة - النظرية ، والمنهج، والمصطلح - تمثل منظومة متكاملة تبدأ من الإطار الشامل «النظرية» وتنتهى إلى التقنية المتداولة التى يستعملها أصحاب المنهج فى ممارساتهم العملية. هذه العلاقة كثيرًا ما تتم فيها اختراقات لأنها غير معزولة تمامًا عن عديد من المؤثرات فى الحقول الجانبية المجاورة للحقل الأدبى والإبداعى عمومًا، فالتحولات التى تحدث فى أية نظرية تؤدى إلى تعديل فى المنهج والمصطلح، وغالبًا ما تتم تعديلات

المصطلح بطرق الاستعارة من الحقول المعرفية المختلفة، فالفلسفة - مثلاً- كانت تمثل القوام الأساسى لنظرية الأدب الأرسطية، وهى نظرية تجريدية عقلانية، ولكن هذه النظرية عرفت تحولاً كبيرًا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، عندما أخذت الثورة الرومانسية تفرض وجودها، هذه الثورة ارتبطت بمجال معرفى شكل سندًا أساسيًا لها، هذا المجال تمثل فى الحقل التاريخى، فنشأة الوعى التاريخى وتعديل تصورات الزمن كى تتفق مع معطيات الواقع ومستلزماته أصبحت هي المبادئ التى تمد المنظومة الرومانسية بمصطلحاتها. لذلك نجد أن العناصر الأساسية التى كانت تتردد فى الكلاسيكية حل محلها عناصر ومصطلحات أخرى جديدة . فإذا كانت الكلاسيكية تتحدث عن المحاكاة فإن الرومانسية أصبحت تتحدث عن الفرد وعلاقته بالمجتمع ، وعن عمليات التطور التاريخى، هذا فضلاً عن حديثها عن الزمن وإشكالاته، وهو خطاب يختلف عما كان سائدًا. وظلت الرومانسية هى المسيطرة على مجالى الأدب والنقد حتى مطلع القرن العشرين، عندما بدأ علم آخر ذو مكانة كبيرة فى الظهور، هذا العلم هو «علم اللغة» حيث بدأ يستحوذ على بنك المصطلحات النقدية، وبدأت مفاهيمه تشيع فى حقل الدراسات الأدبية والنقدية، وبذلك تغير نسق المعرفة الأدبية، لتقوم فيه اللغة بالدور الأكبر والأساسى المهيمن على ما عداه ، وهنا نشهد تحولات النظرية الأدبية فى ثلاث مراحل أساسية:

١- عندما كانت الفلسفة هى مركز الثقل الموجه لحركتها.

٢- عندما كان التاريخ يحتل مركز الثقل.

٣- ثم تنتقل اللغة لتصبح النموذج المسيطر على نظرية الأدب فى العصر الحديث.

إن العلاقة بين النظريات الأدبية المختلفة لا تقتصر على ارتباط كل نظرية بنموذج علمى تستمد منه مقولاتها ومصطلحاتها، وإنما يصبح لكل نظرية أيضًا تجليات منهجية عديدة يجمعها أساس معرفى واحد، ويشترط فيها ألا تكون متناقضة، بمعنى أن النظرية الأدبية الواحدة تسفر عن

طرائق متعددة ومناهج متعددة في التطبيق، وهذه المناهج لها مصطلحاتها، ويمكن أن تتبادل الاصطلاح ، هذا التبادل يضمن لها قدرًا من الحيوية والمرونة فى المصطلح النقدى ، ولكن هذا التبادل محكوم بالاتساق المعرفى بين العناصر التى يتم تبادلها، وهذه نقطة جوهرية كثيرًا ما نغفل عنها فى دراستنا النقدية فى عالمنا العربى ، نتصور أن بوسعنا أن نخلط بين مصطلحات تعود إلى مناهج مختلفة فى أصولها المعرفية، ونتصور أن ذلك يخلق نوعًا مما نزينه لأنفسنا ونطلق عليه مصطلحًا مرغوبًا فيه هو مصطلح التكامل، هذ التلفيق الذى يسمى أحيانًا بالتكامل يغفل عن أمر جوهرى وهو أن نظريات الأدب تختلف فيما بينها اختلافًا جوهريًا فى الأسس المعرفية التى تقوم عليها، وأنه لا ينبغى لنا على الإطلاق أن نضم عددًا من المصطلحات التى تنتمى إلى نظرية معينة ونلفقه قسرًا مع مصطلحات أخرى تنتمى إلى نظرية مخالفة لها معرفيًا، لأن ذلك ينتج تناقضًا شديدًا فى المبادئ المؤسسة.

هناك توضيح آخر قد يشرح لنا بشكل أفضل العلاقة بين النظرية الأدبية والمنهج النقدى؛ وهو المتصل بعلاقة المنهج بالمذهب ، لأن كثيرًا من النظريات الأدبية كانت تتسم - خاصة النظريات القديمة- بشىء من العقلانية المطلقة، وترتبط بمنظومة الأفكار التى يعتقدونها ويؤمنون بها ويسلمون بمبادئها، دون إخضاعها للتمحيص النقدى من ممارسى الأدب إبداعًا ونقدًا ودراسة، عندئذ كانت تمثل ما يطلق عليه المذهب الأدبى.

والمذهب لم يكن مجرد طريقة فى التفكير أو إجراء فى التحليل، ولكنه منظومة من المبادئ التى تعطى صورة كلية وإجابة تامة عن السؤالين الأساسيين، عن ماهية الأدب وعن علاقاته المتعددة، يؤمن بها الأديب مبدعًا وناقدًا ويمارسها دون أية فرصة للتساؤل حولها أو التشكك فيها أو إخضاعها للمراجعة وإعادة النظر.

كان المذهب بهذا المفهوم أقرب إلى أن يكون أيديولوجيا. فتيارات الأدب القديمة الكلاسيكية والرومانسية حتى الواقعية كانت تتسم بهذا الطابع

الأيديولوجى، لأنها كانت ترتبط بمبادئ عامة فى الحياة تنتظم مظاهر النشاط الإنسانى السياسى والاقتصادى والثقافى العام.

الأيديولوجية - إذن - لا تقتصر على الأدب، ولكنها تتجاوز ذلك لتشمل موقف الإنسان فى الحياة وعلاقته بالمجتمع ووضعه فى التاريخ والعقائد التى يدين بها. ارتبطت المذاهب الأدبية فى الفترات السابقة على القرن العشرين ارتباطًا حميمًا بهذه المفاهيم الأيديولوجية. كان لذلك تأثيره الشديد الواضح على مناهج النقد، وتأثيره المباشر على مصطلحات النقد الأدبى، لأن النظرية طالما تعدت المجال الأدبى لتشمل موقف الإنسان فى الحياة تصبح أكثر شمولاً وإلزامًا وعدم قابلية للمراجعة الدورية، بمعنى أنه يمكن لنا مراجعة أفكارنا الأدبية من حين لآخر إذا لم تلتحم بشكل واعٍ أو غير واعٍ، مباشر أو غير مباشر بموقفنا الأيديولوجى، فإن حدث ذلك يصبح مراجعةً هذه المبادئ وتعديلها أمرًا بالغ المشقة، لأن الإنسان لا يستطيع أن يغير رؤيته للحياة وموقفه منها بشكل سريع متلاحق يتسق مع سرعة إيقاع تغييره لأفكاره عن الأعمال الأدبية ذاتها وهذه هى الصعوبة.

إذن نستطيع أن نقول إن الفرق الجوهرى بين المذهب والمنهج يتمثل فى أن المذهب له بطانة أيديولوجية يصعب تحريكها، بينما المنهج يتكئ فى الدرجة الأولى على مفاهيم عقلية أو منطقية أو علمية يمكن حراكها وتغييرها، فيصعب على الأديب الذى يعتنق مذهبًا أن يغيره بسرعة، بينما يسهل على المفكر الذى يعتنق أو يقتنع بمنهج محدد ثم يجد فيه جوانب واضحة من القصور أن يستكمله بقدر أكبر أو يعدله بمرونة أوضح.

إن الطابع المرن للمنهج يرتبط بصفة أساسية، وهى اقتران المنهج بالعلم؛ لأننا نعرف أن العلم لا يؤمن بالمسلمات، فقوانينه دائمًا موقوتة، توضع لتنفى، فمرونته الداخلية هى خاصيته الأساسية.

إن نظرية العلم تتميز طبقًا للصياغات الفكرية الحديثة بأنها تسمى أحيانًا «النظرية التكذيبية» ، بمعنى أن كل ما يقبل التكذيب والتعديل والتجاوز ينتمى إلى العلم، وما لا يقبل التكذيب أى أنه من قبيل الحقائق

المطلقة الأبدية الخالدة فهو ليس من مجال العلم. هذا يعنى أن الحركية المستمرة هى القانون الأساسى فى العلم.

فالمنهج عندما يقترن بالعلم يكتسب هذه الخاصية الحركية ويختلف تبعًا لذلك عن مفهوم المذهب لأن المذهب يعتمد على مبادئ مسلم بها لا تقبل الشك أو الطعن فى مدى زمنى أو مساحة محدودة، ولكن على المدى البعيد عندما تتغير المذاهب وتختلف المراحل التاريخية يمكن أن نتصور أن هذا اليقين المطلق لم يعد صحيحًا ويمكن تغييره ، نتيجة لذلك نجد أنه ابتداء من العصر الحديث تراجعت فكرة المذهبية فى الأدب والنقد، وحلت محلها فكرة المنهجية، هذا التراجع اقترن بتراجع الأيديولوجيا والمنظومات الكلية الشاملة التى تزعم درجة عليا من اليقين والحقيقة، وتزايد الطابع النقدى والارتباط الأوثق بالجوانب العلمية بما فيها من نزعة تكذيبية، ونقصد بالنزعة التكذيبية قابلية العلم دائمًا لتعديل حكم القيمة خضوعًا لحكم الواقع.

تلك هى النقطة الجوهرية فى العلم، فهو لا يطلق قيمًا مثل الأيديولوجيا لكنه يمسك بحقائق ، وينحى الأفكار القيمية كلها التى تمتلك أهمية خاصة لبعض المبادئ لكى يركز على كيفية تمثلها فى الواقع .

هذا النزوع العلمى هو الذى جعل النقد يتطور طبقًا لتطور نظريات الأدب ذاتها من مرحلة المذهبية إلى مرحلة المنهجية، ونلاحظ أيضًا أن هناك قدرًا من التداخل بين المناهج المختلفة، لأن الفواصل التى تعزلها ليست قاطعة أو حاسمة، لكن هذا التداخل لا يؤدى عند النظر الصحيح إلى الاختلاط أو التشويش ، فهناك مناطق مشتركة تتعدل بها المناهج طبقًا لكشوفها المتوالية، إلى جانب هذا التداخل نجد أن هناك حالات من التخارج والتباين وهما يتضحان فى المقام الأول عند اختلاف الأسس المعرفية للمناهج المتعددة، وفى هذه المناطق لا يمكن أن يلتقى منهجان إذا اختلفت أسسهما المعرفية وإذا اختلفت النظريات التى يعتمدان عليها، أما عدا ذلك فسنجد أن مناطق التداخل أكثر شيوعًا وانتشارًا ، فالمناهج تعدل من حركتها في مسارها بمحاولة استخلاص العناصر الفعالة التى مازالت

قادرة على الإجابة المعدلة باستمرار عن أسئلة النظرية الأدبية وإدخالها فى النسيج المنهجى الجديد، وبعبارة أخرى وبمثال واضح نجد أن الانتقال من المناهج التاريخية إلى مجموعة مناهج البنيوية وما بعدها قد تم فى مرحلة محددة حاولت إنكار أية جدوى وأية أهمية لمجموعة المناهج التاريخية للانقلاب عليها وإحداث قطيعة مع الماضى ، لكن هذا الأمر لم يستمر وقتًا طويلاً كما سندرسه بالتفصيل، حيث تبين أن المناهج التاريخية ذاتها أخذت تستمد بعض مقولاتها وتكيف نظرياتها وتصنع مصطلحاتها الخاصة بها كى تنفذ إلى قلب المنهج البنيوى، تأخذ منه مجموعة من تصوراته وتضمها إلى جهازها النظرى والإجرائى والاصطلاحى، ولم تلبث البنيوية نفسها بعد أن كانت فى بدايتها شكلية بحتة مضادة للتاريخ أن تعدل مقولاتها لتستبقى تلك العناصر التى مازالت فاعلة ووظيفية وضرورية فى نظرية الأدب التاريخية، وتدرجها فى نسقها الجديد فيما بعد البنيوية.

لكن يجب التأكيد على أمرين، من حيث طبيعة التداخل والتخارج بين المناهج المختلفة:

الأول: أن هذا التداخل لا يمكن أن يتم فى ظل تكامل مفتعل ملفق، ولابد أن يتم بين عناصر قابلة للاتساق المعرفى وليست متناقضة.

الثانى: أنه يوظف دائمًا لاستكمال الإجراءات التى تؤدى إلى نجاعة التحليل النقدى للظواهر الأدبية.

نستطيع إذن اعتمادًا على هذا المفهوم العام للمنهج وتطوره من الارتباط فى المراحل الأولى بالجهاز المنطقى الفلسفى، للاقتران منذ بداية العصر الحديث بالطرائق العلمية التجريبية الاستقرائية أن نتمثل بصفة عامة الشكل الكلى للمناهج النقدية وهو يتجسد فى منظومتين :

- **المنظومة الأولى:**

وهى المنظومة التاريخية بتجلياتها المتعددة، ولا تضم نظرية واحدة فى الأدب وإنما تضم نظريات ومناهج عديدة.

● **المنظومة الثانية:**

وهى منظومة البنيوية وما بعدها، وهذا هو المدخل الذى نستعرض منه خارطة المناهج النقدية .

ولكننا نريد أن نطرح سؤالاً، وهو سؤال أساسى فى موقفنا من هذه المناهج، سؤال طالما طرح منذ بداية عصر النهضة العربية حتى الآن، ويبدو أن اللبس المحيط به لم يتم حسمه فى أية مرحلة من المراحل مع أننا الآن فى أشد الحاجة - وأكثر من أى وقت مضى - لأن نستوضح رؤيتنا له ، وندرك مساره الصحيح، هذا السؤال هو:

عندما نتكلم عن المناهج النقدية هل نتكلم عن الآداب القومية والمحلية والثقافات المتعددة بأنشطتها وتجلياتها المختلفة وانقساماتها الشديدة إلى مجموعة الثقافات الغربية والثقافات الشرقية التي تنتمى إلى قوميات وأجناس ولغات مختلفة؟ أم أننا نتكلم عن محصلة إنسانية عامة تشمل جماع هذه الآداب والثقافات وتنطبق عليها جميعًا؟ وبعبارة أخرى فى دراستنا للمناهج النقدية هل يصح التمييز أو ينبغى التمييز والفصل بين ما هو عربى وما هو أجنبى ؟ وهل خضعت المناهج النقدية فى الثقافة العربية لنفس المحددات والمقومات وأشكال التطور التى خضعت لها فى الثقافة الغربية؟ وما هى العلاقة بين الدائرتين؟

هذا سؤال بالغ الحساسية والخطورة، وينبغى أن نتعرض له بمدخل عام قبل أن نتحدث عن المناهج تفصيليًا.

والذين يطرحون هذا السؤال غالبًا ما يتخذون مواقف متباينة، فمنهم من يؤثر الحديث عن فكر وأدب وثقافة عربية فحسب ويضعها فى مقابل الفكر والأدب والثقافة الغربية والعالمية مقابلة التغاير والاختلاف، ويعتمد فى ذلك على أسباب تاريخية ومنطقية معقولة، فلكل من الأفقين تاريخه وتطوره وارتباطاته الجذرية بالمجتمع والحياة والأوضاع السياسية والثقافية والعقائدية وخاصة الحواجز اللغوية، الأمر الذى يبرّر فى الظاهر المقولة

التى تدعو إلى التمييز بين ما ينتمى للدائرتين العربية من ناحية والعالمية من ناحية أخرى.

هذا موقف علينا أن نأخذه فى الحسبان وعلينا أن نخضعه لشىء من التحليل النقدى فى الدرجة الأولى. ولعل أصحاب الموقف الآخر المقابل لذلك الذين يرون أن الفكر الإنسانى لم يتمثل أبدًا فى جزيرة معزولة، ولم يتطور عبر سجون اللغات والأقاليم، وإنما كان دائمًا يجد سبله لاختراق هذه الحواجز ليسفر عن حركة ترتبط بطبيعة الحال بالمجتمعات التى تنشأ فيها وتخضع للشروط التاريخية التى تكيفها، لكنها لا تلبث أن تسرى بعد ذلك فى الفكر الإنسانى كله، تخلق تيارات أشبه ما تكون بتيارات عالمية، تحدد الملامح العامة لهذا الفكر ، وتأخذ فى حسابها اختلاف التضاريس فى التجليات المختلفة.

فمثلاً ما يطلق عليه الثقافة الغربية لا يمثل وحدة جغرافية ولا تاريخية، ولا لغوية واحدة، وإنما يخضع لعصور ومراحل عديدة، وينتمى إلى لغات وثقافات متخالفة ويجعلها منفصلة جغرافيًا وتاريخيًا ولغويًا وثقافيًا، ومع ذلك لا يمنع هذا من أن ندرك شيئًا من الشمول الكلى بين تياراتها المختلفة، وأن المقولات الأيديولوجية خاصة المتعلقة بالعقائد التى كانت تفصل الناس وتكاد تجعلهم أجناسًا مختلفة تقوم العلاقة بينها على منطق العداء والحروب أكثر مما تقوم على منطق التواصل الحضارى، فإذا كان هذا منطق العصور القديمة، فإنه لا يمكن أن يظل منطق العصور الحديثة. وربما كان التناول النظرى لهذه القضية لا يسفر عن نتيجة موثوق بها، وكانت الأمثلة التاريخية هى التى تعدل نظرتنا أو درجة انحيازنا لهذا الفريق أو ذاك.

●●●●●